أثر الضغط الديمغرافي على بيئة السهوب في العهد الروماني

(اختفاء الفيل وتفاقم البداوة)

د. محمد البشير شنيتي
أستاذ الآثار والحضارات القديمة
(معهد الآثار – جامعة الجزائر(

مقدمة داخلية

السهوب تسمية مناخية تعني الإقليم الذي تنتشر فيه نباتات السباسب، ويسوده طقس جاف قليل التهاطل. وهي في الجزائر إقليم النجود (الهضاب) العليا الغربية التي تتصف بكونها إقليما رعويا على وجه العموم، وتدعى هضبة الشطوط لاحتوائها على مسطحات مائية تتجمع فيها سيول ووديان داخلية، تنحدر إليها من المرتفعات المحيطة بها من جميع الجهات، يغطي نبات الحلفاء مساحات كبيرة منها. وهي متصلة مورفولوجيا بسلسلتي جبال الأطلس التلي شمالا والصحراوي جنوبا ومرتفعات اولاد نائل شرقا، ويتراوح ارتفاعها عن سطح البحر بين 1200م. و1300م[1]. من الجهة الغربية المحاذية للحدود المغربية لتنخفض تدريجيا في اتجاه الشرق إلى مادون ا لـ 200م. عند منخفض الحضنة. وهي تشكل شبه مثلث منفرج الزاوية ضلعه الأصغر غربا ووتره يستند إلى جبال الأطلس الصحراوي جنوبا، أما زاويته الحادة فتنغرس في منخفض الحضنة، وبذالك يكون طول هذا المثلث العظيم حوالي 700 كلم. هي امتداد السهوب (الهضاب) الجزائرية من الغرب إلى الشرق.

نشأ عن هذه الطبيعة المتميزة لبلاد السهوب حياة اجتماعية – اقتصادية متحركة منذ أن سيطر الإنسان على هذه المساحة الشاسعة بواسطة الرعي الذي تطورت آليته بعد استنفاد الغطاء النباتي بالرعي الدائم على امتداد الفصول،

فكان التنقل تارة نحو بلاد التل صيفا، وتارة نحو تجاويف الأطلس الصحراوي وسفوحه الجنوبية شتاء. فما هي عوامل نشأة هذه الظاهرة التي ارتبطت بشعب الجيتول قديما وبالعرب الرحالة حديثا؟ وما مدى تأثيرها على بيئة السهوب (فونا – فلور) ؟ وهل كان للاحتلال الروماني أثر في ذلك؟.

يقتضي البحث عن الإجابة تشخيص الوضع أثناء الوجود الروماني في المنطقة، وفهم العلاقة الأمنية (العسكرية) على الأرض بين المؤسسة العسكرية والأهالي على مدى مراحل الاحتلال، من جهة علاقة ذلك بحركية الاستيطان ونمو العمران أثناء العهد الامبراطوري الأول في شمال أفريقيا عموما وفي موريطانيا القيصرية خاصة التي تميزت بهذه الظاهرة من جهة أخرى.

لا جدال في أن ظاهرة البداوة والترحل في شمال أفريقيا قديمة قدم المناخ السائد حاليا في هذه المنطقة من العالم، وقد أشارت إلى ذلك أقدم النصوص (هيرودوت- سالوست – استرابو..) وأن من عُرفوا بالجيتول كانوا أكثر اتصافا بهذه الظاهرة الاقتصادية – الاجتماعية. هؤلاء القوم الذين شبههم استرابون بالعرب البدو في عاداتهم وأخلاقهم وملابسهم وطرق معيشتهم وتعدد زوجاتهم وكثرة أطفالهم، فيقول بأنهم يقتاتون من لبن ولحوم القطعان التي يربون منها أعدادا كبيرة، خاصة بالمنطقة المحاذية لبلاد الأثيوبيين[2] (الغرمانتيين). وليست هذه المنطقة في تقديرنا سوى الإقليم الممتد مابين الأطلس الصحراوي (جبال عمور-القصور- اولاد نايل...) وحواف الصحراء بمحاذاة الوديان (وادي جدي خاصة)، وهي موطن البدوالرحل اليوم كما كانت بالأمس.

ونجد عند ابن خلدون وصفا مشابها للرحل البربر في عصره يقول: «ويضعن أهل العز منهم والغلبة لانتجاع المراعي فيما قرب من الرحلة لا يجوزون فيها الريف إلى الصحراء والقفر الأملس (الرمل)، وربما كانت ا لإبل من مكاسب أهل النجعة منهم شأن العرب»[3].

لكن أشكال الترحل ومداه الجغرافي وتغير اتجاهاته وشدة حدته أمور ساهمت فيها عوامل تاريخية ارتبطت بالسيطرة الأجنبية المتصفة بالنشاط الزراعي وتغليب العمران المران ونبذ أشكال التحرك البشري المهدد للأمن والاستقرار.

- **دور الإجراءات العسكرية (الاستحكامات ذات العلاقة)**

معروف أن الأباطرة الأنطونيين دفعوا بالاحتلال إلى مشارف السهوب الموريطانية، واقاموا مرتكزات حدودية هناك مثل رابيدوم (سوار جواب) وتنراموزا (برواقية). لكنهم توقفوا عند الحدود الجنوبية لمرتفعات التيطري، وظل البدو المور فالتين من السيطرة، يكوّنون ضغطا أمنيا على المراكز الدفاعية المحاذية للسهوب. وكان الوجود الروماني في بلاد التل محفوفا بالمخاطر لما وصل سبتيموس سفيروس إلى العرش الامبراطوري، فأحكم الليمس الموريطاني واستكمل تجهيزاته، ووصل به إلى أبعد مدى (من جميلاي — القصبات شرقا إلى مغنية — نمروس سيروروم غربا). ثم أكمل أبناؤه بعده التحكم في الهضاب العليا (السهوب) والسيطرة على مرابض البدو ومساراتهم ما بين الصحراء والتل ، خاصة لما أنشئت قلعة ديميدي (مسعد) جنوب الجلفة(4).

ونلاحظ أن احتلال بلاد المور وإحكام السيطرة عليها جرى تنفيذه في اتجاهين متوازيين تقريبا، أحدهما شمالي قامت به وحدات عسكرية خاصة جلبها الامبراطور من مقاطعات أوروبية عبر البحر، والثاني جنوبي نفذته وحدات من الجيش النظامي التابعة للفيلق الأغسطي باتجاه الجنوب الغربي، فتم احتلال أقصى جنوب بلاد المور الرعوية (جيتوليا) وجعلت منه إقليما عسكريا تابعا لمقاطعة نوميديا في شكل حزام عسكري وقائي يقسّم بلاد الرعي بشمال أفريقيا إلى جزئين منفصلين، هما إقليم عشابة الشرق وإقليم عشابة الغرب، بحيث يتعامل الأول مع جنوبي الأوراس والثاني مع جنوبي مرتفعات التل الأوسط (التيطري- سعيدة)، وهنا تكمن فعالية الليمس النوميدي - الموريطاني من الناحية الأمنية، بحيث أصبح في هذه المنطقة (حوض وادي جدي) بمثابة كاسر أمواج متقدم في وجه البدو.

وهكذا أصبح الدافع الأمني عامل تحكم وإعاقة بالنسبة للمور البدو، فاضطروا إلى التعامل مع الواقع الجديد بأساليب أخرى منها الترحل والانتجاع نحو مناطق سهبية كانت لاتزال موطنا للحيوانات البرية (أسود-فهود- فيلة..)

وممارسة الضغط على التحصينات العسكرية قصد اختراقها واسترجاع حرية التنقل من جديد[5].

- **ارتفاع الكثافة الديمغرافية في بلاد التل وتوسيع الخريطة الزراعية.**

عملت الاستحكامات العسكرية، بوصفها نشاطات أمنية دائمة الحركة ووسيلة استيطان قوية الفعالية، على تغيير الوضع الديمغرافي وعلاقة الإنسان المغربي بوسطه الطبيعي(أي بيئته). من ذلك أن المؤسسة العسكرية تمّ توزيعها جغرافيا في منطقة الليمس بكيفية تسهل عليها التدخل السريع كلما اقتضت الضرورة ذلك. والملاحظ للمسافات الفاصلة بين مركز وآخر في منطقة الليمس يجد أنها تتراوح بين 25 و35كلم. وهي مسافة يمكن أن تقطعها دورية فرسان يوميا،كما كانت المسافات بين المدن والمراكز الأمنية والمزارع في إقليم التل الواقع خلف الحدود لا تتجاوز كثيرا المسافات المذكورة، الأمر الذي كان يضمن الأمن للمزارعين الرومان ويشجع وكلاء الأمبراطور على توسيع مجالات أنشطتهم الفلاحية بضم أراضي جديدة كانت بحوزة القبائل التمردة وما أكثر حوادث التمرد والانتفاضات في بلاد المور. وقد بلغ توسيع خريطة الممتلكات الرومانية مداه في العهد السيفيري[6].

وقد انجر عن ذلك إبعاد كثير من الأهالي خارج الليمس وتقييد لنقلاتهم ولعل ذلك ما أشار إليه ترتولينوس بقوله: « إن السلطة عملت على ألا تتجاوز شعوب المور والجيتول الحدود المعينة لها»[7]، وكان الهدف من ذلك الضرب حماية الأرض المنتزعة منهم حتى لا يسترجعونها أو يجتاحونها بمواشيهم بعد أن وُضعت موضع الاستيطان والمزارعة طبقا لما اقتضته حركة التوسع في مناطق الحدود. وجاء عند سويطون تنويه بأعمال الأباطرة في توسيع غراسة الزيتون وحمايتها عسكريا من أصحاب الأرض الأصليين الذين انتزعت منهم لهذا الغرض[8].

وكانت سياسة الاستيطان التي انطلقت مبكرا منذ عام 122 ق. م. في منطقة قرطاجة بنقل ستة آلاف مزارع روماني إليها ثم تعثرت ليستأنفها الأباطرة بقوة وتصميم شديدين، قد سارت في أعقاب المؤسسة العسكرية التي مهدت

لها السبل الأمنية وتقنين الأرض وتجهيزها بالطرق وموارد المياه وما إلى ذلك من مستلزمات الحياة في أرض الأعداء. وتعتبر التشريعات الفلاحية المعروفة بقوانين مانكيا من أهم الإجراءات التي يسرت توسيع الخريطة الزراعية الخاضعة لرقابة السلطة على حساب الأهالي مزارعين كانوا أم رعاة.

وتعبر الشواهد الأثرية على كثافة ديمغرافية ذات طابع مدني وريفي في مناطق التل التي شملتها السيطرة الرومانية، كما تحولت المراكز العسكرية التي أقامها الجيش لأغراض أمنية إلى تجمعات سكنية أمّها مدنيون إضافة إلى أحفاد الجنود القد ماء. وظهرت أقاليم عمرانية في منطقة الليمس شملت جنوبي الأوراس وبلاد الحضنة وجنوبي التيطري والونشريس.و دلّت بقايا منشآت التحكم في المياه وتقنيات الري الريفي والمدني بالمناطق شبه السهبية مثل الحضنة وجنوب الأوراس على مدى الاهتمام بعنصر الماء الذي تزايدت الحاجة إليه بتزايد العمران وكثافة النشاط الزراعي في تلك المناطق[9].

وإذا عدنا إلى أدبيات ذلك العهد فإننا نجد فيها صورا تعبيرية قوية عن حالة الخلل الناجم عن تغليب الحياة المدنية والنشاط الزراعي، فهذا ترتوليانوس يقول: « إنه من يوم لآخر تصبح الأرض أكثر زرعا وأوفر غنى... ففي كل مكان بيوت وفي كل موضع سكان وفي كل جهة بلدات (مدن)، إنها الحياة في جميع النواحي... إن جميع الألسن تلهج بعبارة واحدة وهي أن الطبيعة ضاقت بنا». ويضيف : « لقد زاحمت الأملاك الكبرى الصحراء، وانتشرت الحقول الزراعية على حساب الغابات، إن قطعان الماشية أبعدت الحيوانات المفترسة»[10]. أي وصف أدق من هذا وأيّ تعبير أكثر بيانا من هذه الألفاظ الموجزة التي عبر بها كاتب مسيحي مخلص، يناضل في سبيل تبليغ قيم مغايرة لتلك التي كانت سائدة في مجتمع عصره ضمن امبراطورية قوامها النفع المادي والتمايز الطبقي والتنافس المحموم على استغلال موارد الطبيعة بصفة أدت إلى تدمير أسس التوازن فيها بين البيئة والإنسان. فالبيوت التي كانت تملأ الدنيا من حول ترتوليانوس، وكذا البلدات الغاصة بالبشر هنا وهناك، وجموع الناس الذين يفجرون الحياة في كل مكان، كل ذلك ليس سوى دليل على زحف العمران الاستيطاني الذي اشتدت حركته أواخر القرن الثاني ميلادي فاستجاب الامبراطور سبتيموس سيفيروس

(معاصر ترتوليانوس) وابناؤه من بعده لمتطلبات هذا الاستيطان وعملوا على توفير الشروط الأمنية له كي يبلغ أقصاه، لما نقلوا دفاعاتهم الحدودية إلى أقصى الجنوب لمواجهة البدو.

• التاثير على بيئة السهوب (فناء الفيل وسيادة الجمل)

انجر عن أعمال التهجير والمطاردة التي مارسها الجيش ضد كثير من القبائل النوميدية والمورية أن التجأ بعضها إلى المناطق الجبلية المنيعة، وارتمى بعضها الآخر في المناطق السهبية والصحراء، وعمل أولئك النازحون على إزالة الغابات ومطاردة الحيوانات الضارية لتوفير مساحات للزراعة والرعي ، وهو ما أثر على الغطاء النباتي والثروة الحيوانية في مناطق التروح. وقد أشار أميان مارسلان(إلى الأعداد الهائلة من القبائل التي كانت تقيم بالجبال والسهوب واستهوتها حركة الأمير فيرمون التمردية فانضمت إليه وناصرته[11]، وفي إشارة أميان دلالة على الكثافة الديمغرافية غير العادية التي كانت سائدة في مناطق التروح، هذا الاحتشاد في المناطق الفالتة من السيطرة الرومانية وهو وضع طارئ لم تشر إليه النصوص الإغريقية قبل الاحتلال الروماني أو في بداياته، بل إن أصحاب تلك النصوص شد انتباههم ما كانت تتوفر عليه هذه المناطق النائية من وفرة وتنوع في الحيوانات والغابات .

وترتب عن مزاحمة الإنسان للحيوانات البرية، بسعيه لكسب مساحات للزراعة والرعي، أن ساهم الإنسان في تدمير الغطاء النباتي وإفناء أنواع من الفونا، خاصة منها تلك التي كانت تشكل خطرا على حياته في الوضع الجديد، حيث أصبح البشر يقيمون في بيئة تلك الحيوانات، فلا مهرب لهم من الدخول معها في معركة إفناء حقيقية.

وقال استرابون في هذا الصدد واصفا ضراوة الصراع القائم بين السكان المور والحيوانات المفترسة بأنه بلغ حداً هدد حياة الناس وعاق نشاطهم الزراعي فأبقوا على الأرض عرضة للحيوانات البرية وامتهنوا الرعي والتنقل[12]. وقدر سالوست بمبالغته المعتادة أسباب الموت عند الأهالي بأنها لا تتعدى ثلاثة: الحروب

والحيوانات المفترسة ثم الشيخوخة[13]. . كما أورد إليانوس نقلا عن كتابات يوبا الثاني التي لم تصل إلينا أن قطعان الأسود والفهود كانت تهاجم مساكن الريفيين عندما تشتد حاجتها إلى الطعام فتفترس الأطفال والنساء والرجال على السواء، وأنه كان من الأمور المعتادة أن تقتفي الأسود أثر الصيادين المور العائدين من عملية صيد فاشلة فتهاجمهم في بيوتهم[14].

لكن هذه الروايات لم تدرج سلوكات الفيلة إزاء الأهالي ضمن هذا الوصف المريع، بل هناك إشارات إلى تعايش آمن بين الإنسان والفيل الذي تنسب له سلوكات نبيلة إزاء البشر، فما الداعي لإفناء هذا الحيوان الطيب في بلاد المغرب؟.

كان الوسط الطبيعي ملائما لحياة الفيلة التي كانت تجد حاجتها من العشب والماء في المناطق التي كانت تستوطنها، من المحيط الأطلسي إلي خليج قابس مرورا بوديان: درعا والساورة وغير وجدي، وسفوح جبال الأطلس الصحراوي التي تحتفظ برسوم الفيلة على جوانب الصخور[15]. و لم يتأكد المختصون في علم المناخات القديمة من حدوث تغير مفاجئ أوائل الاحتلال الروماني تسبب في انقراض أنواع من فونا شمال أفريقيا ومنها الفيلة.

وأجمعت النصوص المعتمدة على المشاهدة العينية أن الفيلة كانت تعيش في بلاد المغرب طليقة في البراري والغابات بأعداد هائلة، من ذلك ما ذكره حانون القرطاجي وأورده هيرودوت من أنه شاهد أعدادا كبيرة من الفيلة ترعى بالقرب من شواطئ المحيط الأطلسي أثناء رحلته البحرية الشهيرة في غرب أفريقيا[16]. كما شهد المؤرخ اليوناني بوليبيوس أواسط القرن الثاني ق. م. بكثرة الفيلة، فقال بأنها تملأ ليبيا(بلاد المغرب)[17]. وذكر أبيانوس أن أعدادا كبيرة من الفيلة استعملها القرطاجيون في حروبهم ضد الرومان، منها 140 فيلا استعملوها في معارك صقلية أثناء الحرب البونية الأولى، وأن القائد أميلكار استخدم أزيد من 200 فيل في حربه ضد جيش قرطلجة المتمرد (240-237). وأن حنبعل استطاع أن يجمع ويدرب 80 فيلاً على عجل، وأدخلها في معركة زاما (202 ق.م.) وذكر كذلك أن اسطبلات قرطاجة كان تسع 300 فيل، وأن الحصول

وهكذا تعددت عوامل الإفناء العمدي للفونا المغاربية في ذلك العهد، في مقدمتها عاملان بارزان: الحاجة إلى الأرض والحاجة إلى الحيوانات البرية. وقد ذكر بلين القديم طرق قنص الفيلة، وقال بأن الناس لم يعودوا في حاجة إلى الفيلة في ذاتها ولكن إلى أنيابها. ونسب هذا المؤرخ رواية لبوليبيوس، لم نتأكد من صحتها لضياع نصها، مفادها أن أنياب الفيلة كانت تستعمل سياجات لحظائر الماشية عند الأهالي[20]، وفي هذا إشارة إلى الوفرة وسهولة الحصول عليها. وتتفق هذه الرواية مع ما أورده إليانوس من أن الناس كانوا يبحثون عن أنياب الفيلة فيجدونها مغروسة في الأرض، وأشارإلى أن هذه الثروة قد أخذت في النضوب تدريجيا في المنطقة فراح الناس يجلبون حاجتهم منها من بلاد الهند[21]، وهو ما ذكره بلين أيضا، مما يدل على أن الفيل المغاربي كان في أيامه الأخيرة في عصر بليئوس (النصف الثاني من القرن الأول بعد الميلاد).

من الملفت جدا أن بروز دور الجمل في الأحداث التاريخية ببلاد المغرب وانتشاره على نطاق واسع في شمال أفريقيا صادف اختفاء الفيل بوتيرة عكسية. ولعل ذلك يعود في تقديرنا إلى مدى الحاجة إلى كل منهما. ففي الوقت الذي كان المزارعون وأهل المدن يطاردون الفيل لإبعاده عن مجالهم الحيوي، والحصول منه على حاجتهم من العاج، وهو ما أعتبره سلوكا سلبيا، كان الرحل يعملون على إنماء الجمل وترويضه لكونه أفضل وسيلة نقل تلائم محيطهم الطبيعي ونمط حياتهم، وهو ما أعده سلوكا إيجابيا .

الخاتمـــة

قال غوتيي: « ظهرت الحضارة الغربية فاتحة في بلاد البربر مرتين، ومن الصدف الكبرى أن اقترنت كلتاهما باختفاء نوع من الحيوان، وخلال مدة خمسة عشر قرنا التي تفصل بينهما لم نسجل على الإطلاق اختفاء مماثلا»[22].

أليست هذه إدانة صريحة لسلبيات الحضارة الغربية في شمال أفريقيا واعترافا ضمنيا بنظافة الحضارة العربية الإسلامية وتبرئتها من المساهمة في إبادة فونا بلاد المغرب؟

وهكذا، فالحاجة إلى مزيد من الأرض الزراعية المصحوبة بالحاجة الملحة إلى الحيوانات البرية أدت مجتمعتان إلى الإضرار بالبيئة. وهنا تكمن ظاهرة استغلال الشعب الروماني لممتلكات الشعوب المهزومة، بمفهوم يأخذ فيه الاستغلال معنى الاستنفاد.

إن اختفاء الفيل من بلاد المغرب يمثل شهادة تاريخية موثقة على المظاهر السلبية المرتبطة بتاريخ الاستعمار.

* * * *

- الإحالات -

(1) **Despois** (J.), L'Afrique blanche, paris, 1961, p.64.

(2) **Strabon**, geographie, XII, 13, 11.

(3) **ابن خلدون (عبد الرحمن)**، تاريخ العبر.. بيروت، 1983، مج.6.ص.177

(4) Picard (G-ch), Castillum Dimmidi, Paris-Alger, 1947.

(5) **شنيتي (محمد البشير)**، التغيرات الاقتصادية والاجتماعية... الجزائر، 1984، هنا وهناك.

(6) **Salama** (P.), Nouveaux témoignages... libya (Ep. Ar.), t.I, 1953; II,1955.

(7) **Birtey** (A.) Septeius Severus, d'après Benabou, la résistance africaine à la romanisation, Paris, 1976, p.176-177.

(8) **Suiton** (C.), Histoire Augustes (vis Sev.).

(9) هناك أعمال عديدة في الموضوع، منها رسالة ماجستير لـــ: سليماني (س.)، معهد الآثار (2005) عنوانها: منشآت الري القديمة في بلاد الحضنة.

(10) **Tertulianus**, Deanima,30

(11) **Ammien Marcelin**, XXI

(12) **Strabon**, géog. XVII,13, 10

(13) **Salluste**, guerre de jugurtha, XVII, 6.

(14) **Elianus**, Natura animalium, XI; III, 1.

(15) **Lhote** (H.), Les gravures rupestres du sud Oranaie, passim.

(16) **Herodote**, IV, 191.

(17) **Polybe**, XI, 3, 5.

(18) **Appien**, 95.

(19) **Gsell** (**S.**), Le climat de l'Afrique du nord, p.47.

(20) **Pline l'ancien**, H.N., VII, 18; VIII, 85.

(21) **Elianus**, Nutura..., XIV, 4.

(22) **Gautier** (**E–F.**), Le passé de l'Afrique du nord. Paris, 1955, p.172.